العربي

العدد ٢٤٤
ربيع ثان ١٣٩٩
مارس (آذار) ١٩٧٩

- انقذوا "تمبكتو" من اجل التاريخ الاسلامي!
- ثورة الصين على النظام الدولي
- فتح ملف "الامبراطورية العثمانية"

ثورة الصين على النظام الدولى

بقلم : جميل مطر *

منذ بداية خلافاتها العلنية مع الاتحاد السوفيتى فى أواخر الخمسينات والصين مستمرة فى معارضة نظام القطبين ، وقد تراوحت هذه المعارضة بين الثورة العارمة فى أحيان وبين التمرد السلبى فى أحيان أخرى . وفى الحقيقة لم تكن الصين وحدها المعارضة الوحيدة لهذا النظام ، بل شاركتها فى مرحلة معينة فرنسا الديجولية التى حاولت تكتيل اوربا الغربية والعمل على خلق قطب ثالث له حرية خاصة فى السلوك الدولى على مستوى قمة النظام . وهى المحاولة التى باءت بالفشل لأسباب كثيرة اهمها الدور الذى لعبته بريطانيا وغيرها بايحاء من الولايات المتحدة لمنع تحقيق الحلم الديجولى .

والجدير بالذكر ان الحرب العالمية الثانية كانت الحد الفاصل بين شكلين من اشكال النظام الدولي ، اذ نشبت الحرب فى ظل نظام توازن القوى الذى ساد أوربا مدة قرن ونصف وانتهت بولادة نظام تقف على قمته الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتي كقطبين تفصل بينهما وبين غيرهما من الدول الاوربية وغير الاوربية مسافة شاسعة من امكانيات القوة الدولية . ومنذ ذلك الحين توزعت القوة الدولية - بشكل أو بآخر - بين هاتين الدولتين . ومع استمرار التقدم التكنولوجي فى ميادين السلاح واستمرار التصارع بينهما اطرد اتساع الهوة التى تفصل بينهما وبين أى دولة اخرى منفردة .

وبدا حرص القطبين واضحا فى البداية على صبغ الصراع بينهما بصبغة ايديولوجية تضمن توافر اقصى حد من اللامرونة داخل المعسكرين التابعين لهما ، وكان الصراع الايديولوجي السمة الرئيسية لمرحلة الحرب الباردة ومن خلال هذا الصراع احتكر القطبان اكثر التفاعلات السياسية الدولية وتحكما فى معظم مفاتيح العمل السياسي الدولي ، وساد العالم جو الرهبة والخوف من اشتعال حرب نووية ، كما ساد دول العالم الثالث شعور بالخشية على استقلالها المكتسب حديثا نتيجة الفارق الصارخ بين امكانياتها البسيطة والامكانيات الهائلة المتوفرة للدولتين الأعظم .

وفى ظل هذا الصراع وهذا الشعور ولدت فكرة تدعيم الانحياز ، لم تولد كتمرد أو ثورة على نظام القطبين ، اذ لم يكن فى وسع اعضائها تغيير هذا

* مستشار سياسى بجامعة الدول العربية بالقاهرة .

ماوتس تونج

هواكونتج

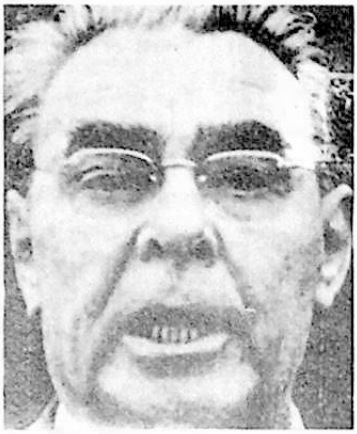

ـ بريجنيف

كارتر

النظام ، ولكنها تشكلت لتحمى دولها من تاثيرات الصراع الايديولوجى بين القطبين ، ولتكتسب لكل دولة من دولها ارادة من خلال الارادة الكلية لمجموعة عدم الانحياز .

وهنا يبدو الفارق بين الصين ـ وهى احدى الدول التى دعمت مجموعة عدم الانحياز منذ بدايات تشكله ـ وبين الدول المؤسسة للمجموعة . اذ بينما اعتبرت بكين عدم الانحياز طاقة مضافة تستطيع الصين بواسطتها ان تغير معادلات القوة الدولية وتضعف من نظام القطبين لصالح نظام أكثر تعددا على القمة ، كانت الدول المؤسسة تنظر الى عدم الانحياز كمبدأ لا يطالب بتغيير النظام الدولي وانما يحقق الضمانات المعنوية الكفيلة بحماية دول المجموعة من طغيان الصراع الايديولوجي .

ومن طبيعة الامور ان يدافع اصحاب الوضع القائم عن مراكزهم وامتيازاتهم ، ولذلك وقفت القمة بطرفيها ضد جميع محاولات الصين لتغيير الوضع القائم ونجحت فى احباطها ، واختلفت درجة الحدة فى التعامل مع التمرد الصينى، فكان الاتحاد السوفيتي اشد حدة ليس فقط بسبب مصالحه المتزايدة فى ذلك الوقت داخل مجموعة عدم الانحياز ولكن لأن التمرد الصينى على القطبين يضعف مبدأ التماسك الايديولوجي داخل المعسكر الاشتراكى ويضعف من عنصر اللامرونة الذى يربط بين اعضاء المعسكر الواحد . وبنفس المنطق تعاملت الولايات المتحدة مع فرنسا الديجولية حين تمردت على حلف الاطلسى وحاولت انشاء نفوذ لها بين دول عدم الانحياز ومدت تفاعلات خاصة بها عبر اسوار الصراع الايديولوجي الى المعسكر الآخر ، والتقت مع الصين الظامئة الى دور دولى على هدف تغيير شكل النظام الدولى .

الصين والوفاق بين القطبين

مع بدء مرحلة الوفاق تغيرت كثير من المفاهيم فى السياسة الدولية ولاشك ان الصين شعرت ـ كما شعرت دول أخرى كثيرة ـ ان انماط تفاعلاتها

[illegible] في ظل صراعات الحرب الباردة لاتتمشى مع [illegible] الوفاق . فالوفاق لم يكن يعنى انهاء [illegible] الصراع وان اصبح الوفاق يعنى فى حد ذاته نظاما دوليا جديدا بشكل نظام القطب الواحد . انما الوفاق كان يعنى تغير انماط الصراع بحيث تصبح الايديولوجية عنصرا ثانويا مع الاحتفاظ بهيمنة القطبين على القمة .

وقد ادى تغير انماط التعامل على القمة ـ بين ما ادى ـ الى حالة من السيولة العالمية سادت على وجه الخصوص دول العالم الثالث ، وظهرت بوضوح داخل المعسكرين الشرقى والغربي اذ تدعم التيار الذى عرف باسم « الشيوعية الاوربية » داخل دول المعسكر الغربى متبنيا اسلوب الاستقلال النسبى فى تعامله مع القطب الشيوعى وغير معارض تماما للحلف الراسمالى ، بل ان رومانيا وهى عضو فى الحلف الشرقى وجدت الفرصة سانحة فى ظل السيولة الدولية لتفك التزامها وتمد تفاعلاتها ـ كما فعل ديجول قبلها ـ عبر اسوار الصراع الى الناحية الاخرى .

اما الصين ، وقد اكتشفت فشلها فى محاولة هدم نظام القطبين عن طريق تدعيم علاقاتها بدول مجموعة عدم الانحياز أو بالدول المتمردة فى كلا المعسكرين وتحريضها لهذه الدول على الثورة ضد هيمنة القطبين ، فقد بدات تتلمس طريق الانفتاح المباشر على المعسكر الغربى وبوجه خاص على القطب الامريكي . ويبدو ان الصين وهي تفعل ذلك كانت تدرك ان الوفاق بين القطبين سيعنى ـ ان آجلا أو عاجلا ـ تفرغ الاتحاد السوفيتى لعلاج مشكلته مع الصين ، وانها اذا استمرت فى سياسة معاداة القطبين وفى سياسة الامتناع عن المشاركة الايجابية فى تفاعلات الاسرة والمنظمات الدولية ستكون الخاسرة فى اية مواجهة مع الاتحاد السوفيتى .

وعلى الرغم من تبنى سياسة الانفتاح على العالم الخارجي وانضمامها للامم المتحدة ظلت الصين مترددة فى اتخاذ اسلوب ايجابى يتناسب مع اهمية عضويتها الدائمة فى مجلس الامن ومع توقعات الدول التى علقت آمالا كبيرة على مشاركة الصين فى تفاعلات الاسرة الدولية . اذ بدت الصين كعضو فى الامم المتحدة وكانها ترفض ان تكون شريكا فيما يدبره القطبان الاعظم او ان تعترف بالنظام الدولى القائم . وليس صحيحا تماما ما قيل من ان الصين لم تشارك بالايجابية التى تتناسب مع مكانتها وطاقاتها بسبب نقص فى خبراتها الدبلوماسية او السياسية ، بدليل انها طرحت فى البداية افكارا تهدف جميعها الى ادخال تعديلات فى المنظمة الدولية بما يضعف من سيطرة القوتين الاعظم ويحقق مصالح القاعدة العريضة لاعضاء الامم المتحدة .

المحاولة الجديدة

فى كل المحاولات السابقة كانت الصين تسعى الى اضعاف أو تحطيم نظام القطبين عن طريق تشكيل قوة ثالثة من تحالف اطراف من خارج القمة الدولية واطراف متمردة من داخل معسكرى القمة . أى انها كانت تسعى الى خلق تكتل من دول ينشىء قوة معادية للقطبين على حد سواء ، تعمل ككرة الجليد المتدحرجة تزداد حجما ونفوذا مع مرور الوقت والممارسة على حساب نفوذ القطبين .

فى المحاولة الجديدة تطرح الصين نفسها رصيدا مضافا الى احد القطبين ضد القطب الآخر . وبذلك تكون الصين قد تخلت عن سياسة تكتيل قوى جديدة تشكل معها أو بها قطبا ثالثا وتبنت سياسة تقترب الى حد كبير من السياسة البريطانية التقليدية فى القرن التاسع عشر حين كانت تلعب دور « الموازن » بين الاحلاف الاوروبية .

وقد يبدو للوهلة الاولى ان المحاولة الأخيرة لاتزيد عن كونها سياسة جديدة الهدف منهـا التحالف مع المعسكر الراسمالى لحماية الصين من القطب الشيوعى الذى يمثل بالنسبة اليها تهديدا مباشرا وحالا . وهذه هى الصورة التى تجسدت لدى الكثيرين من المعلقين وعلماء السياسة فى الغرب بل وهـى الصـورة التـى تختفى وراء الحملة والتهديدات السوفيتية العنيفة التى اعقبت هذا الاتجاه الجديد فى السياسة الخارجية الصينية .

ولهذا الراى مايبرره ، اذ لاشك ان الصين تشعر الآن واكثر من اى وقت مضى ان الحصار السوفيتي من حولها يكاد يكمل حلقة خانقة . ففى الشمال تتضاعف القوة السوفيتية المباشرة نوعا وكما ، وفى الغرب تتزايد مساحات النفوذ

ديجول

السوفيتي لتضم مناطق كانت تقع ضمن المجال الحيوى الصينى ، وفى الجنوب حيث توجد حساسية خاصة ذات جذور تاريخية تظهر حاليا مشروعات لانشاء اتحاد لدويلات جزر الهند الصينية له علاقات خاصة بالاتحاد السوفيتى ومعاد للصين .

ومن الواضح ان فيتنام تقوم بدور كبير فى الوقت الحالى لتعبئة دول آسيا الجنوبية والجنوبية الشرقية فى شكل من اشكال التحالف ضد الصين وهو الدور الذى ينسجم مع ماصار يعرف بنظرية الامن السوفيتي الآسيوى .

الى جانب عنصر التهديد السوفيتي المباشر فهناك ايضا من الاسباب الداخلية فى الصين ما يبرر صورة سعى الصين للتحالف المباشر مع الولايات المتحدة ضد الاتحاد السوفيتى ، واهم هذه الاسباب هى الحاجة الشديدة للحصول على التكنولوجيا الحديثة فى مجال التسلح وخاصة المجال الفضائى ، اذ ان الانقطاع الطويل عن متابعة تواصل التقدم التكنولوجى فى الخارج بسبب ظروف الصين الداخلية خلال الثورة الثقافية ثم انفتاحها فجأة امام الى اكتشاف مدى

اتساع الفجوة التى تفصل بين الصين والدول المتقدمة . ولن يكون امام الصين وسائل تسمح لها بسد هذه الفجوة فى فترة قصيرة سوى ان تتحالف تحالفا مباشرا مع القطب الغربي .

هذه الصورة المبسطة تفترض ضمنا ان الصين تقبل بوضع التابع للقطب الغربي مثلها فى هذا الوضع مثل بقية اعضاء الحلف الراسمالى . هذا الافتراض يتناقض تناقضا رئيسيا ليس فقط مع الايديولوجية القائمة فى الصين ، بل ويتناقض ايضا مع احد الاهداف الدائمة فى سياستها الخارجية ، وهو الهدف الخاص باضعاف نظام القطبين او هدمه نهائيا لصالح نظام جديد تتعدد فيه الاقطاب .

والراى الذى نذهب اليه ان الصين وقد جربت ان تشكل قطبا ثالثا معاديا للقطبين فى وقت واحد، تجرب الآن طرح نفسها قطبا ثالثا موازنا بين القطبين السوفيتي والامريكي ، واختارت الظروف الراهنة التى تدل مؤشرات عدة على انها ظروف فى صالح الاتحاد السوفيتى من الناحية الجيوبولتكية لتلقى بثقلها كقطب موازن الى جانب المعسكر الغربى .

احتمالات نجاح أو فشل المحاولة الجديدة

لقد عرضت الصين على المعسكر الغربى عددا من المغريات لقبولها قطبا مؤيدا ، فهى على استعداد ان تسمح لتايوان بالاحتفاظ بنظامها الاقتصادى والاجتماعى اذا وافقت تايوان على شكل من أشكال الوحدة مع الصين ، كما انها تضمن سلامة وأمن كوريا الجنوبية وقدتستخدم نفوذها فى كوريا الشمالية لتحقيق نوع من الاتحاد بين الجنوب والشمال ينهى حالة التوتر والصراع ويضمن عدم المساس بالنظم الاقتصادية والاجتماعية القائمة . وهى تعرض الى جانب هذه التنازلات الاساسية صفقة ضخمة تتمثل فى ما قيمته اكثر من ٢٥٠ بليونا من الدولارات لتحديث الاقتصاد والجيش الصينى . يقابل هذه المغريات التهديد الضمنى بامكانية التصالح مع الاتحاد السوفيتى اى اضافة الصين للرصيد الجيوبولتيكى السوفيتى ، نظيرازالة الخطر العسكرى السوفيتى ضد الصين .

هذا الطرح من جانب الصين يمثل ربما اخطر مسالة خارجية واجهت الدبلوماسيتين السوفيتية والامريكية منذ ازمة برلين عام ١٩٤٨. لان القضية لا تتعلق بحليف اضافى لهذا المعسكر او ذاك ، فالاضافة العادية ـ وقد تكون حليفا جديدا او قوة عسكرية مضافة او ميزة استراتيجية جديدة ـ سرعان ما تتولى قواعد سلوك نظام القطبين اصلاح عدم التوازن الناشىء عنها واعادة النظام الى حالة توازنه العادية . مثال ذلك حيازة القنبلة الذرية وازمة كوبا عام ١٩٦٢ وازمتا برلين عام ١٩٤٨ وعام ١٩٥٨ وسباق التسلح وخاصة فى مجال الصواريخ عابرة القارات .

ولا شك ان الاختلاف كبير بين فقدان المعسكر الشرقى للصين عندما نشب النزاع الصينى السوفيتى وبين ماتطرحه الصين حاليا على المعسكر الغربى . فالنزاع الصينى السوفيتى لم يحدث فور نشوبه اختلالا فى توازن نظام القطبين ، ان الصين رغم اهميتها الاستراتيجية كانت ضعيفة عسكريا فضلا عن انها واصلت دعم حركات التحرر فى آسيا وافريقيا ضد المعسكر الغربى ، اى انها ظلت لفترة غير قصيرة رصيدا محسوبا للمعسكر الاشتراكى وخصما للمعسكر الراسمالى .

ولكن الموقف الحالى يختلف اختلافا كليا عن اى ازمة او مرحلة دقيقة مر بها النظام الثنائي منذ نشاته . فالصين اليوم قوة سياسية واقتصادية ضخمة وامكانية استراتيجية اكثر ضخامة ، وانضمامها الى معسكر او آخر يهز قواعد واركان نظام القطبين ويهدد كيانه .

ولان الانضمام الى القمة كما تطرحه الصين حاليا يتناقض مع عديد من المسلمات التى قام على اساسها نظام القطبين . وظهور القطب الموازن ـ او الثالث ـ يعنى بالضرورة ان نظاما جديدا قد نشا لا علاقة لقواعده بقواعد النظام القديم . ومن العسير ان نعرف بالتاكيد مراحل الانتقال من النظام الثنائى الى نظام متعدد الاقطاب لانه لا يوجد فى تاريخ العلاقات الدولية حالة مماثلة . الا انه من الناحية النظرية يجوز ان نفترض انه طالما احتفظ القطبان بهيمنة كبيرة على حلفائهما ، وطالما احتفظا بفارق واسع بين امكانياتهما وامكانيات الاطراف الاخرى سواء كانت هذه الاطراف حليفة او متمردة على النظام، فان النظام قادر على ان يصمد فى وجه التحديات، وسيعمل القطبان ما فى وسعهما لمنع الاخلال بالتوازن القائم بينهما .

وفى الواقع يصعب تصور نجاح المحاولة الصينية الجديدة ، ليس فقط لان الصين لا تستطيع بمفردها ان تجمع من القدرات والامكانيات ما يؤهلها لمركز القطب الموازن فى الاجل المنظور، ولكن ايضا لان الاتحاد السوفيتى لن يسمح لاى عنصر دخيل على النظام الثنائى ان يخل بالتوازن ولو ادى الامر الى شن حرب على الصين قبل اكتمال تحالفها مع المعسكر الغربى .

من ناحية اخرى ، ولنفس الاسباب التى تتعلق بتوازن النظام الثنائى ، لا يمكن للولايات المتحدة ان تقبل الصين قطبا متحالفا قد ينقلب بعد فترة الى قطب موازن .

الا انه فى اطار قواعد السلوك داخل نظام القطبين ، يتعذر على المعسكر الراسمالى ان يرفض الميزة الاستراتيجية التى تقدمها الصين . اذ ان المحافظة على الصراع الصينى السوفيتى محتدما يخفف الضغط السوفيتى على اوروبا الغربية ، ويستنفد جزءا هاما من طاقة الحلف الاشتراكى وامكانياته . ولذلك يحتمل ان يلجا القطب الراسمالى الى الايحاء لحلفائه لتدعيم وتنويع علاقاتهم بالصين بشرط ان يتم هذا التعارض طبقا لقواعد سلوك نظام القطبين . فيستفيد الحلف الغربى من ميزة اضافية لا تخل بالتوازن بين القطبين الا الى الدرجة التى تسمح قواعد النظام بها. بمعنى ان يكون اختلالا يمكن اصلاحه عن طريق تنازلات فى مسائل او مناطق اخرى ، كمسالة مفاوضات نزع السلاح او تخفيض قوات وسط اوربا او منافع استراتيجية فى افريقيا والشرق الاوسط وجنوب آسيا . وقد تقبل الصين هذا الوضع تفاديا لحرب غير مناسبة مع الاتحاد السوفيتى ، ولكنها لن تقنع بهذا الوضع هدفا ينسيها هدفها الاساسى او يعدل ثورتها الدائمة على النظام الدولى الثنائى .

جميل مطر